الفضيلة فى الإسلام

الفضيلة هيئة نفسية تصدر عنها الفضائل، وليس المراد بالفضيلة مجرد الفعل وحده، وإنما المراد الهيئة النفسية التى يصدر عنها الفعل. والفضائل تصدر عن القوى النفسية فى الإنسان. ومقياسها الاعتدال الذى هو الوسط الأخلاقى. فالقوة الناطقة إذا اعتدلت كان منها الحكمة.. وديوان الفضائل فى المجتمع الإسلامى لم يظل مقصورا على تلك الألفاظ والمصطلحات التى نقرؤها ونرويها ونسعمها ولكن روى معها حقائق من الطبع والخلق والكسب وكان أرفعها السعى لتحصيل العلوم والعمل بها.

والمتأمل فى الدراسات الإسلامية يجد أن العلماءَ المسلمين لم يقفوا عند حصائل الألفاظ والمصطلحات، بل عاشوا حياة العلم ذاتها، وبذلوا كل الاهتمام باللباب دون القشور، واشتغلوا بالجوهر دون العرض، وزكوا أنفسهم بالمحمود الذى يزداد حمداً كلما ذكا ونما.

والفضيلة التى اهتم بها المسلمون مشتقة من الفضل. والفضل ضد النقص. والفضيلة الدرجة الرفيعة فى الفضل. ومعنى الفضل الزيادة على الحاجة أو الإحسان ابتداءً بلا علة، وفضيلة الشيء مزيته، أو وظيفته التى قصدت منه، أو كماله الخاص به، ويقال، فضيلة السيف: إحكام القطع، والفضيلة فى علم الأخلاق هى الاستعداد الدائم لسلوك طريق الخير، أو مطابقة الأفعال الإرادية للقانون الأخلاقى أو مجموع قواعد السلوك المعترف بقيمتها.

فالفضيلة تعود الإرادة تحقيق الخير واجتناب الشر، فى كل ما يصدر عنها، من فعل أو قول ، أو اعتقاد. ولذلك كانت ملكة مقدرة لكل فعل هو خير من جهة ذلك التقدير أو يظن به أنه خير، أعنى الحافظة لهذا التقدير والفاعلة له، ولهذا كانت موجدة لكل فعل يُقْصَدُ به نحو غاية ما، جليل القدر، عظيم الشأن فى حصول تلك الغاية عنه.

ومن هذا يتضح لكل مفكر ، أن الفضيلة لا تتحقق بفعل الخير مرة أو بصدور الخير عن الإرادة فى وقت دون وقت، ولكى يكون الإنسان متصفاً بالفضيلة لابد أن يكون متعودا على فعلها، وأن تصدر عنه الفضيلة صدوراً مستمراً، فلا يكفى فى وصف الإنسان بالصدق أن يصدق فى موطن ويكذب فى آخر. بل لابد أن يكون صادقاً فى المواطن كلها، ومثل هذا يقال فى كل فضيلة، أو فى الفضائل جملة.

ويرى العلماء: أن الفضيلة لا تتحقق إلا بالعلم والإرادة والثبات:

١ ـ أما العلم: فلأن العمل لا يكون فاضلا إلا إذا كان مسبوقا بالعلم بفضيلته ومن ثم يجب على المرء أن يعلم أصول المعارف والمعاملات والتأديبات كما يجب العلم بالرذائل والشرور الضارة بالإنسان حتى يتسنى له بذلك معرفة نفسه وتطهيرها من التخلى عن الرذائل قبل التحلى بالفضائل.

٢ ـ وأما الإرادة: فلا يكون الإنسان فاضلاً إلا إذا كان مريدا مختارا لما يتصف به من الفضائل. ومن هنا فالمكره والمجنون. لا توصف أعمالهما بالفضيلة، فالإرادة شرط الفضيلة بل هى أساس المسئولية والجزاء، ولذلك يقول ابن مسكويه: الخيرات هى الأمور التى تحصل للإنسان بإرادته وسعيه فى الأمور التى لها أوجد الإنسان ومن أجلها خُلق. والشرور هى الأمور التى تصرفه عن هذه الخيرات بإرادته وسعيه أو كسله وانصرافه.

٣ ـ وأما الثبات : فبالإضافة إلى العلم بالفضيلة والإرادة لها، لابد من الثبات عليها ودوامها لأنها بذلك تصبح عادة وسجية وتربى فى النفس الإرادة القويمة نحو الفضائل والإقبال عليها والتمكن منها. ومن ثم فصدور الفضيلة من الإنسان بغير ثبات عليها لا يجعله من الفضلاء.

وبالعلم والإرادة و الثبات تتحقق الفضيلة الكاملة للإنسان فلا تنال منه الأحداث، ولا يفزع من نوائب الدهر، ولا يرضى إلا بإظهار الحكمة إلى أهلها.

ومن شرط الفضيلة أن تتم فى الحياة الاجتماعية، لأن من ترك مخالطة الناس وتفرد بالأمر دونهم، لا تحصل له الفضيلة، ولا معنى للتواضع والصدق، والكرم، والإخلاص وإنكار الذات، وغيرها من الفضائل إلا بالنسبة إلى رجل يعيش مع الناس ويشاركهم فى أحوالهم.

ولذا يقول العلماءُ: إن الفضائل تختلف باختلاف طبقات المجتمع فإذا كانت العفة فضيلة العمال، والشجاعة فضيلة الجنود، والحكمة فضيلة الحكام. فإن المجتمع الفاصل هو المجتمع العادل الذى تتحقق فيه جميع الفضائل الإنسانية فى وزن واحد من الإنسان.

ومن شروط الفضيلة أيضاً: قدرة الفاعل على التمييز بين الفضيلة والرذيلة أو بين الخير والشر. فالذى يعمل الخير، ولا يدرى أنه خير، لايقال عنه إنه فاضل، ولا يوصف فعله بأنه فضيلة، ولكى يُعد العمل فضيلة، والعامل فاضلاً، لابد أن تتجه نيته وقصده إلى الفضيلة.. والمرءُ لا يوصف بفضيلة ما لأنه فعلها مرة أو عدة مرات بل لابد أن يتعود على فعلها، وأن يستمر على التمسك بها دائما.

ولكى يوصف المرءُ بفضيلة العدل لا يكفى أن يكون عادلا مرة أو مرات بل لابد أن يكون عادلاً على الدوام.

والفضائل كثيرة ومتنوعة. فالبر، والعدل العام، والشجاعة والمروءَة والعفة والرحمة، والحلم، والسخاءُ، والحكمة، والصدق والصبر كلها فضائل وهذه الفضائل وإن كانت مظاهر لحب الخير، ومقت الشر إلا أنها مختلفة. فمنها ما هى فضائل فى ذات فقط، ومنها ما هى فضائل من جهة أنها تُفْعَلُ فى أناس آخرين.

وهذه التى تفعل فى أُناس آخرين، تكون أعظم عند قوم منها عند آخرين، وفى حال دون حال. مثال ذلك أن فضيلة الشجاعة آثر فى وقت الحرب منها فى وقت السلم.

وأما فضيلة العدل فمؤثرة فى السلم والحرب جميعا. وفضيلة السخاء والمروءَة عند المحاويج آثر منها عند غير المحاويج - « المحاويج أحوج وزان أكرم من الحاجة

فهو محوج وقياس جمعه بالواو والنون لأنه صفة عاقل، والناس يقولون فى الجمع محاويج مثل مقاطير ومفاليس، وبعضهم ينكره ويقول غير مسموع» وإنما تنفصل فضيلة المروءة من السخاء بالأقل والأكثر لأن فعل كليهما هو المال. لكن المروءة هى فعل أكثر من فعل السخاء. فأما البر فهو فضيلة عادلة يعطى الفاضل بها لكل امرىء ما يستحق، وذلك بقدر ما تأمر به السنة، والجور هو الخلق الذى يأخذ به المرءُ الأشياء الغريبة التى ليس له أن يأخذها. وأما الشجاعة ففضيلة يكون المرءُ بها فعالاً للأفعال الصالحة النافعة فى الجهاد وعلى حسب ما تأمر به المبادىءُ حتى يكون الفعل خادماً للتعاليم التى توجهه.

فالفضائل الشخصية هى الفضائل التى تنظم حياة الفرد، وتجعل قواه وملكاته فى حالة تعادل وتوازن. وأما الفضائل الاجتماعية فهى الفضائل التى تجعل المرء فى حالة وفاق مع غيره من الناس، ومما يلاحظ أن كلا من الفضائل الشخصية والفضائل الاجتماعية، له علاقة وثيقة بالآخر، فبدون الفضائل الشخصية لا يمكن تحقيق الخير للمجتمع، وبدون الفضائل الاجتماعية تلحق الأضرار والمفاسد بالأفراد.

ويجدر بنا ونحن نتحدث عن الفضيلة والفضائل أن نذكر أن الباحثين وصلوا إلى أن مراتب الصفات فى الجانب الخلقى ثلاث:

المرتبة الأولى:

مرتبة التعامل المألوف، الذى يجرى عليه كافة الناس، حين لايكون هناك سبب من أسباب المجاملة والمكارمة، ولا سبب من أسباب المنازعة والمخاصمة والشأن فيه أن يقع المستوى الطبيعى، فلا يعلو عنه ولا يهبط.

وان شئت بعبارة أُخرى فقل: هو التعادل المحض، والتوازن الصرف. فهذا يبيعك سلعة وأنت تشتريها فلا فضل لك عليه ولا فضل له عليك، لأنك حققت مصلحتك بالأخذ وهو حقق مصلحته بالإعطاء ثم ما دمت قد أخذت منه حقك كاملاً، وأعطيته حقه كاملاً، فليس أحد منكما قد أخل بمستوى التعادل

والتوازن. . وإذا أردنا ان نصف هذه المرتبة الخلقية فى المجتمع فإننا نصفها بأنها «هيكل التعامل» تشبيها لها بالهيكل الذى يقوم البناءَ، وتأتى من بعده الإضافات والمكملات وهى لا تسمى فضيلة ولا رذيلة. ومع أنها هى الحد الاجتماعى الذى يقاس عليه التعامل، والذى هو الشأن الغالب فى أى مجتمع فإنها لا تكفى الناس ولا يستقيم عليها شأنهم.

المرتبة الثانية:

مرتبة التعامل الفاضل الذى يقوم على أساس أن يعتقد كل إنسان أن واجبه يقتضيه الفضل أى الزيادة فهو لا يقيس علاقاته مع الناس بمقدار ما يفيد منهم وما يفيدهم قياساً صارماً لا هوادة فيه، بل يبنى دائماً على أن يتفضل ويتكرم، ثم لا يعتبر تفضله وتكرمه فضلا له وكرامة. وإنما يعتبره واجباً، وبهذا يسرى فى المجتمع روح السماحة واليسر والمحبة، ويرتبط الناس برابطة الإحسان الذى هو فوق العدل، وينبعث فيهم لون من النشاط المثمر البناء.

المرتبة الثالثة:

مرتبة التعامل النازل، وأساسها الأنانية البغيضة، وأن يشعر الأفراد بأنهم فى معترك قوامه القوة والخديعة، والتحايل على استلاب ما يمكن استلابه من الآخرين، وأن يؤدى الإنسان أدنى الأموال، أو الجهود ليحصل على أقصى ما يمكنه من الميزات وأسباب التفوق. ومن نافلة القول: أن مجتمعاً تكون درجته الخلقية هى هذه الدرجة لا يمكن أن يكون مجتمعاً سعيداً.

وهذه المراتب الثلاث إنما هى منازل طبيعية، وصور واقعية عقلية معاً، لذلك لا يتبدل الحكم عليها فى زمن من الأزمان ولا يمكن أن ينقلب أفضلها فيصبح أرذلها ولا أدناها فيصبح أعلاها، والعقول تقرر ذلك فى آخر الزمان، كما تقرر فى أول الزمان.

فكيف يسوغ من هذا القائل أن يقول : ما صلح للأولين من الفضائل والمثل لا يصلح للآخرين؟ وربما سمعنا هذا كثيراً من كتاب وأدباء وعلماء ورجال فكر.

وتواجهك هذه المقولة التى لا واقع لها . كلما دعا الداعون فى المجتمعات الإسلامية إلى الأخذ بما صلح به حال الأُمة الإسلامية فى أول أمرها. فينبرى هؤلاء بتلك الأقاويل المضلة.

ولعل من أشد البلايا على الأخلاق ما نراه من داء التقليد الذى منشؤه ضعف النفوس واستهانتها بالقيم ، والفضيلة، والدين. وهى بلايا خلقية تبتلى بها الأُمم الضعيفة التى أتلف الغزو الفكرى فيها روح الصلابة والمقاومة. فهى تسرع إلى تقليد الأقوياء فى رذائلهم، دون أن تلتمس الطريق إلى معرفة فضائلهم. ولو تمسك الناس بعرى الأخلاق وعرفوا لأنفسهم قيمتها لكانوا بنجوة من هذا السقوط المزرى.

ونحن نحمد الله عز وجل فقد بقى للأُمة الإسلامية على الأبد ـ مع تباعد أقطارها واختلاف أحوالها، وتفرق آمالها ـ ديوان من الفضائل السامية، وهذا الديوان ثابت القاعدة، شاهق البناء، وهو الذى لم يزل يشدها إلى طباعها من الاستعداد والتأهب.

فقد تفتحت فى ظل الإسلام الأخلاق فتسامت بفضائل النفس، وعائشة رضى الله عنها تنبه إلى ذلك فى إجابتها حين سئلت عن خلق النبى ﷺ كيف كان؟

فقالت: «كان خلقه القرآن». وهذا يمدنا بعطاء خلق النفس الناطقة التى يمتاز بها القرآن لأنه حكم وتنظيم، ورأى وحكمة، ومنهاج وتدبير.

وإذا لم تُرسَمْ لهذه النفس الإنسانية فضائلها المميزة، فإن الإنسان يستوى عند الغضب بالنمر الجائع، وعند الزهد بالسبع المريض، وما أجدرنا أن نتمسك بالفضائل التى دعا إليها الإسلام، ونتخلق بأخلاق القرآن الكريم، ويكون سلوكنا مثلا يحتذى فى عالم الفضائل حتى تتربى النفوس وتزكو، ويرتفع شأن الفرد والجماعة والأُمة ، وتقوى عرى التآخى والتعاون بين بنى الإنسان.